

جامعة إفريقيا العالمية

International University of Africa (IUA)



الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة

إفادات وفوائد في طريق الحج للشيخ عبدالمحمود الحفيان

أ.د. عبد الرحمن أحمد عثمان

الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة
إفادات وفوائد في طريق الحج للشيخ عبدالمحمود الحفيان

أ.د. عبدالرحمن أحمد عثمان

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة لتتبع طريق الحج الذي سلكه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم الطيبي، وأهم المراكز ونقاط الارتكاز في طريق حجه، ودور ذلك في التواصل والإتصال وما نقله من معارف وفوائد عبر هذا الطريق، وتهدف الدراسة لاستجلاء دور طرق الحج في نشر العلم بالسودان ومعرفة الأثر الراد على البلدان الإفريقية. ترتكز الدراسة على مذكرات الشيخ الحفيان ولكنها تستصحب المراجع السودانية مثل طبقات ود ضيف الله والروايات الشفاهية في منهج متداخل يحاول إثراء التراث الديني في شعيرة الحج وتبيان دور الحجيج في تأسيس الأسواق وحركة البيع والشراء بالإشارة إلى اثر الحجيج في التدامج والاندماج الثقافي والتواصل بين أجزاء القارة وخلق علاقات بين المسلمين.

تستصحب الدراسة الحج في تأسيس الممارسة الصوفية عبر عدد من الشخصيات السودانية في رحلة الحج للأراضي المقدسة ويربط كل ذلك بالآثار الاقتصادية والاجتماعية على زراعة القطن في منطقة شندي وانتشار الإسلام في السودان الشرقي وتأسيس الخلاوي. وتختتم الدراسة بعدة نتائج تركز على الآثار العلمية والتعليمية والدينية والاقتصادية لرحلة الحج انطلاقا من فوائد الحج (ليقضوا منافع لهم ويذكر اسم الله). تقارن الدراسة بين دور طرق الحج ووسائله القديمة والحديثة وتخرج بتوصيات حول تعظيم دور الحج في نشر الوعي الديني بين المسلمين. لن تورد الدراسة مؤلف الشيخ عبدالمحمود كاملا، ولأغراض الدراسة ستنتقي منه معالم الطريق في الحركة وتستتثني منه الاستطرادات الفقهية واللغوية والشعرية رغم أن ذلك يدل على علم غزيز وامتلاك لناصية اللغة والأدب، وتعمل الدراسة على تحليل نصوصها بمنهج تحليل المضمون لتستخلص النتائج

رحلة الحج وأدب الرحلات (الرحلة الحجازية):

يقع مؤلف الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة لمؤلفه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نوراالدئم الطيبي الملقب بالحفيان المولود في 1260 هـ والمتوفي في- 1333هـ هذه الرحلة التي راجعها وقدم لها الشيخ عبدالجبار المبارك وخرج أحاديثها المدني محمد توم تقع ضمن أدب الرحلات في إطار ما عرف بالرحلة الحجازية وهو نوع من أنواع الأدب الذي تستمطر منه العلوم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ويوضح قدرة مؤلفه في اللغة والتواصل الجيد. وهو أدب يصف رحلات المسلمين إلى مكة والمدينة، ويلقى الضوء على معالم الطريق، ووجهاء القبائل والحكام. ويوضح طرق كسب العيش والمداخلات التجارية، واللغات كما تشرح شعائر الحج وأشواق المسلمين لزيارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكما يقول محمد المسعودي في كتابه في وصفه الرحلة الحجازية بمؤلفه، الحج لبيت الله الحرام في أدب الرحلات يتميز بنقل مشاهدات الراحل لما حوته من ظواهر أجتماعية وعمرانية ومعرفية وثقافية خلال رحلة العبور والإنتقال بين الأمكنة، وتنبع أهمية دراسة الرحلات الحجازية في أدب الرحلات عامة ما يخلفه من علم ومعرفة بشعائر الحج وكما يقولون " شقة في البلد علم" ومن ذلك القول المنسوب للإمام الشافعي.

تغرب عن الأوطان في طلب العلا

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الاسفار ذل وغربة

وقطع فيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته

بدار هوان بين واشي وحاسد

وقد حظى أدب الرحلات باهتمام كبير قديما وحديثا، ومن ذلك كتب الكشوفات الجغرافية عند الغربيين، تلك الكتابات التي وصفت الطريق إلى منابع النيل

ووضحت المعالم للمبشرين الدينيين والشركات الاقتصادية والمستعمرين في التعرف على إفريقيا وساهم ذلك في نشر المذاهب المسيحية المتعددة في ربوع إفريقيا، إذ تعتبر كتب الرحلات من أوسع ابواب المعرفة والثقافة الإنسانية إذ إنها تصف الطبائع المفتاحية لثقافات الشعوب ومعتقداتها والإحاطة بالعادات والتقاليد، مما يجعلها في بعض الأحيان تبدو كعمل استخباراتي كما هو الحال في كتاب تشحيذ الأذهان في بلاد السودان للتونسي، وكما يقول آدم عبدالله، فالرحالة الأديب كالة التصوير، يسجل لنا كل ما وفع عليه بصره، وكلما لمس شعوره مما شاهده أو اكتشفه من سكان الأماكن التي زارها، ويعرف آدم أدب الرحلات بأنه مجموعة القصص الأدبية التي تقص لنا ما شوهد أو وقع في رحلة من الرحلات. فالناظر في أدب الرحلات يتعرف من خلالها على بلاد وعوالم وبيئات وطرق حياة ويمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية تتخللها إشارات ومعلومات عن الحياة وعادات الناس وعن المدن والأنهار والجزر والجبال والأودية ومختلف الظواهر.

وبالعودة لرحلة الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، فإنه من الواضح أن الشيخ عبدالمحمود الحفيان الملقب بالاستاذ قد كان أديبا واسع الإطلاع وعالما فطحلا، ولابد أن تكون قد وقعت بين يديه مخطوطات في زمن ندرت فيه الطباعة من أدب الرحلات من حجاج غرب إفريقيا، ولاسيما أنه كان ذا منزلة وطريقة صوفية اشتهرت بالكرم وحسن الاستضافة.

ويأمل هذا البحث بعد التأطير لمجاله والتعريف بأدب الرحلات أن يستخرج من كتاب الدرة الثمينة وصف الرحلة نثرا ويقف على واقع الحال بالسودان على عهد الكاتب والمنازل المشهورة وأوجه الأنشطة والأماكن واستخراج الدلالات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وفوائد هذه الرحلة بالنسبة للمسلم كما أشار إلى ذلك الله تعالي في قوله (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{*} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ{*} ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ{*})(الآيات 27–29) سورة الحج

التعريف بصاحب الرحلة

لعله من الأوفق أن نورد بين يدي كتاب الدرة الثمينة ترجمة للسيد الشيخ عبدالمحمود الحفيان، وأفضل من نستشف منه هذا التعريف هو الشيخ عبدالجبار المبارك لصلته بالبيت الطيبي إذ يقول: هو الاستاذ القطب عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم ابن (الشيخ عبدالقادر الجيلي الباز الأشهب) ابن القطب الغوث أحمد الطيب بن البشير (راجل أم مرحي) الجموعي الجعلي الهاشمي، أما من جهة أمه فهو ابن السيدة الليمون بنت ادريس بن أحمد(ضرغام) ابن آدم ابن الملك عمر (ابوزنتر) ابن المك جيلي أبوقرون بن المك عثمان بن المك عون الله بن المك اسماعيل بن المك عمر أبوجريدة المشهور بجيلي بن محمد الجعلي بن سرور بن احمد بن إدريس بن بشارة الملقب (برباط) جد الرباطاب فوالدة الأستاذ عبدالمحمود نورالدائم بهذه النسبة رباطابية وجدودها هم ملوك مملكة تقلي الإسلامية.

ولد الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم في قرية أم طريفي(ود رملي حالياً) حيث كان والده يقيم مع أخواله الجميعاب وذلك في عام 1260هـ ونشأ في حجر عناية والده، وحفظ القرآن في خلوة والده بذات القرية، وتوفي والده وهو في عمر مبكر، وفي سن التاسعة رحلت به والدته مع إخوته الصديق والقرشي ودالزين إلى قرية طيبة الشيخ القرشي غرب الحصاحيصا، حيث أتم حفظ القرآن على يد أخيه القرشي ودالزين في سن الحادية عشر، وتلقي مباديء العربية نحوا وصرفا وأدبا وبلاغة، كما تحصل علوم العقيدة والفقه على أستاذه الشيخ محمود ود زروق، وتلقي علوم التصوف والسلوك على خليفة الشيخ أحمد الطيب ود البشير وكان وقتئذ الشيخ القرشي ودالزين، وتدرج في مدارج السالكين حتى نال اعتراف أساتذته فإجازه الشيخ القرشي والزين الطريقة السمانية مريداً وشيخاً، وقد آلت إليه مقاليد الطريقة السمانية بعد وفاة أخيه الشيخ القرشي، وقد ألف العديد من المؤلفات الفقهية والشرعية والروحية، وفاقت مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً في اللغة والتصوف مكنته بعون الله وتوفيقه من الارتقاء في مدارج العطاء العلمي الملحوظ ليكون من قلائل السودانيين المكثرين في التأليف.

ينتمي الشيخ عبدالمحمود نورالدائم للطريقة السمانية الطيبية وهي من كبريات الطرق بالسودان، وهو من ألمع خلفاء هذه الطريقة، فقد شيّخ بها كثيراً من الشيوخ، وسلك على يديه الطريق الصوفي كثير من المريدين ويعتبره الباحثون (عبدالجبار

المبارك) أقوى شخصيات الطريقة السمانية تجديدا وتأصيلا للمذهب الصوفي وأكثرها عطاء علميا إلى جانب نشره للطريقة في كافة أنحاء السودان إلى جانب تفرده في ملكة النظم الشعري وتجويد النثر وكانت وفاته بطابت ظهر الأربعاء الرابع عشر من ربيع الثاني عام ألف وثلثمائة وثلاث وثلاثين للهجرة (1333هـ).

الطريقة السمانية:

أهل الطريقة السمانية بالسودان قوم من المشتغلين بالعبادة من أهل التصوف المتحابين لا تفرق بينهم أهل أبناء الروح وأبناء الجسد، أعلام بلغوا درجة عالية في مدارج القرب الإلهي بشهادات الأذواق لا شهادات الأوراق. ونهلوا من بحر تتأبى فيه المعاني الذوقية على القيد اللغوي، إلا بضرب من الصيرورة الوجودية في تنزلات البيان العربي. قوم اختصهم الله بعلم الفتح ومحبة الرسول الشيخ أحمد الطيب ودالبشير والشيخ القرشي ودالزين والشيخ عبدالمحمود ود نورالدائم صاحب الذرة الثمينة والشيخ عبدالقادر الجيلي (الباز الأشهب) ألفوا عشرات المؤلفات، وأضحت آثارهم العلمية منهجا للتزكية، وطريقا للسلوك وموردا لدقائق الحقائق.

وللسمانية مشيخة بأم درمان يقودها أعلام صاموا وقاموا وبذلوا الجهد وسهروا وتعلقوا بالذات العلية حتى أضحت بهم السمانية قبلة للمثقفين، الشيخ قريب الله والشيخ الفاتح وابنه الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله وإخوانه عرفوا التصوف لغة، وعرفوه علما، وعرفوه سلوكا، الليل عندهم مطية السائرين إلى ربهم، ومن ليس له نصيب من الليل ليس له حظ من طريق أهل التمكين.

والسمانية في شبشة الشيخ النور من الشيخ برير والشيخ الخليفة إبراهيم والشيخ الأمين ابن الشيخ إبراهيم ومن آثارهم الشيخ السماني بالعرشكول ومن تلاميذهم الشيخ عمر محمد الصافي المعروف براجل الكريدة غرب الكوة أقام المساجد لتعليم القرآن الكريم والفقه وتربية المريدين، وقد تتلمذ عليه الشيخ وقيع الله والد الشيخ البرعي.

ولهم في رمال كردفان بذرة نمت وترعرعت وأصبحت دائرة جذب عميقة الغور، عمقها بعمق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابها، تغنوا بأفضاله وكريم خصاله، فأضحت الزريبة بهم بقعة مباركة في أرض السودان الذاكر،

يعرفها القاصي والداني، يتقاطر إليها الناس من شتى بقاع الأرض.. كيف لا وقد أحالها الشيخ عبدالرحيم البرعي وأسلافه الميامين من أرض خلوية بمكان قفر إلي ديار عامرة تعج بالحياة وتنبض بالحيوية وتتعطر أجواؤها وسماواتها دوما بالتهليل والذكر والتكبير وتلاوة القرآن.. وكم هو آخذ بمجاميع القلوب مرأي مجموعات الصبية واليافعين وهم يتوجهون إلى صلاة الفجر مهللين ومكبرين.. فهذه القرية الغراء، أشبه ببؤرة ينبثق منها شلال نور حتى يبلغ عنان السماء، ثم تنهمر قطراته تغطي كل أرجاء الوطن فتغمره بالبركات، وقد بلغت مساهمات الشيخ البرعي بناء العديد من المساجد والمؤسسات التعليمية وساهم في بناء معامل الجامعات وبنى المراكز الإسلامية وعقد في ليلة واحدة خمسة آلاف زيجة.

وفي جبل الأولياء: قمة للسمانية سمقت وطالت وطابت، واستقرت بقرية الروضة، الشيخ الياقوت وابو الشيخ محمد وجده الشيخ مالك وجد أبيه الشيخ الإمام، أخذوا الطريق السماني عن الشيخ محمد نور راجل ريبه عن الشيخ التوم ودبانقا، أقاموا المساجد وعمروا الخلاوي وحفظ القرآن على أيديهم خلق كثير، ولهم في العلاج الروحي ذراع وباع ولهم تفتح ودراية بعلوم العصر ومقتضياته، أسسوا الزوايا والخلاوي وخاطبوا الناس بوسائل التقانة الحديثة.

هذه هي الطريقة التي ينتمي إليها الشيخ عبدالمحمود وهو أحد ركائزها.

نص وثيقة الدوحة الثمينة في اخبار الرحلة إلى مكة والمدينة

تقع الرحلة في عدة فصول ومباحث مقسمة على طول الطريق إلى مكة بدأ الكتابة من قريته التي أسسها وكبرت على يديه طابت الشيخ عبدالمحمود وانتهي به في قريته.

الرحلة من طابت المحمية إلى الخرطوم:

يقول الشيخ عبدالمحمود في هذا القسم من الرحلة " أعلم أن الله تعالي لما منّ علينا بالحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بفضله وكرمه كان ذلك من طابت المحمية في يوم الخميس رابع يوم من ذي القعدة سنة أربع وعشرين من سنين العمرة بعد الثلثمائة والألف وقد اقتدينا في سفرنا في يوم الخميس بالشارع صلى الله عليه

وسلم فإنه كان لايسافر إلا فيه كما في رواية الشيخين، وإن ذكر بعضهم انه سافر في يوم السبت في بعض أسفاره.

وقد خرج معي في ذلك اليوم من الأمم ما لايحصي عددا، وقد اشتد عليهم فراقنا فمنهم الباكي ومنهم الصارخ ومنهم غير ذلك، ولم يزالوا معنا على الحالة المذكورة إلى أن وصلنا إلى القرية المسماة بالولي، فتلقانا أهلها وانزلونا في منازلهم وأكرمونا وانشرحت صدورهم بنا كثيرا.

ثم إننا من بعد طلوع شمس اليوم الثاني قد سافرنا من القرية المذكورة ولم يزل العالم متراكما علينا إناثا وذكورا، إلى أن وصلنا القرية المسماة بولد بتّرُو، بفتح الباء الموحدة وتشديد التاء المثناة ثم راء مضمومة، فتلقانا أهلها بالمحبة والاشتياق وكل واحد من أخيارها وفضلائها يود نزولنا عنده إلى أن افترقوا في طلب ذلك فرقا كادت أن تثير بينهم فتنة وما ذاك إلا من شواهد كرمهم ومحبتهم لنا لا غلا ولا حسدا، ثم اتفقت كلمتهم على أن يكون نزولنا عند خليفتنا الشيخ الخضر بن الحاج محمد، فأقمنا بمنزله بقية النهار وليلة اليوم الثالث وضحوته، وقد بالغ أهل تلك القرية في إكرامنا واكرام أصحابنا ومن معنا، ولاسيما الشيخ الخضر المذكور، والفاضل الشيخ عبدالله بن محمد بن إمام، فإنه قد جاء من محله هو واخوانه وعشيرته بهدية وذلك بعد أن طلبنا إلى محله وعذره لنا للمضايقة الحاصلة في أمر السفر، جزي الله تعالى عنا هؤلاء وغيرهم ممن قبلهم وبعدهم بأسباب كرمهم لنا خير الجزاء، وكذلك جميع من وصلنا شيء منه ولو قليلا وإنَّا بحمدالله تعالي قد دعونا للجميع بإصلاح الحال وبلوغ الآمال في محلات الإجابة بالحرمين الشريفين مكافأة لهم للحديث الوارد في ذلك عنه عليه الصلاة والسلام وهو " من أتي إليكم معروفا فكافئوه "، الحديث.

وفي هذه القرية قد جاءنا الكواهلة أهل العديد، طالبين لنا بالتوجه إلى محلهم المذكور ومنهم المقدم فضل الله بن دفع الله، وأخيه العمدة الشيخ مصفي، والصديق، وغيرهم فذهبنا معهم جبرا لخاطرهم وإرضاء لنفوسهم ومعنا جمع كبير فأنزلونا في بيوتهم وبالغوا في إكرامنا وإكرام ذلك الجمع مع ما أوصلوه إلينا من الهدية.

ثم جاءنا أهل قرية ولد الماجدي، يطلبون قدومنا معهم لأجل حصول البركة، وهم الشيخ مصطفي ولد على ولد نعيم، أحد الخلفاء في الطريقة، وكذلك الشيخ

الجيلي بن الخليفة أحمد، والفاضل جميل الله أحمد، فتوجهنا معهم، وقبل وصولنا تلقانا على مسافة بعيدة الخليفة أحمد بن محمد،خليفة ولد الماجدي مع كبره وعجزه، وقد أحب أن يكون نزولنا عنده واشتد في ذلك حتى امسك الدابة التي أنا عليها بنفسه، فاستحيت منه ووافقته على غرضه في أن يكون نزولنا عنده لكن شرطنا ألا يكون للطالبين لنزولنا سابقا عندهم إلا هذا اليوم وحده، فقبلوا قول قسمنا اليوم بينهم على ثلاثة أقسام القسم الأول عند الخليفة المذكور، والثاني عند الشيخ مصطفي ولد على نعيم، والثالث عند جميل الله أحمد، فرضوا بذلك، وافينا جميع شروطنا معهم وقد حصل لنا من هؤلاء المذكورين وأهل قريتهم إكرام دل على الإخلاص وصدق المحبة، وقد أخذ علينا الطريقة في هذه القرية أمة من الناس.

ومن قبل خروجنا منها جاءنا ولدنا المبارك الشيخ مصطفي إبراهيم، بقصيدة أنشأها من نفسه يمدحنا بها فجزاه الله تعالي خيرا على حسن ظنه بنا، وإن كنا لسنا أهلا وقد جاء في بعض القصيدة قوله:-

أمام الهدي محمود شيخ طريقنا وقطب أولي العرفان بدر الدجنة
تجلي له الباري بكنه جلاله فكدت به جبلال الجبلة.. الخ

ثم من بعد إكماله القصيدة طلب منا القدوم إلى محله والجمع لازال يزداد فذهبنا معه وقد سهر الفقراء ليلة وصولهم عنده بالذكر فحصلت للذاكرين بركة ونفحات، والمذكور بالغ في إكرام الجيش طعاما وشرابا. ومنه صار سفرنا وقد لحقنا في أثناء الطريق العمدة الفاضل الشيخ خلف الله ولد تاتاي الجعلي، وأهدي لنا شيئا للاستعانة على الحج ثم ودعنا ورجع، ولم نزل مسافرين إلى أن صار نزولنا عند الشيخ أبي عاقلة، خليفة الولي الكامل الشيخ حمد ود الترابي فاعتني بنا وأكرمنا، ونحن بمنزل الشيخ المذكور قد ورد علينا كتاب من حضرة مأمور مركز الكاملين، مضمونه التأسف على عدم لقائنا ونزولنا عنده مع ترقبه لذلك وتهيئة منازله لمزيد من التبرك والدعوة الصالحة له وغير ذلك مما يشهد بكمال محبته، وقد رددنا له ما هو لايق بمعنى جوابه ومحبته.

ومن هنا صار سفرنا ونزولنا من افاضل إلى فاضل إلى أن حطت رحالنا لدي الفاضل الشيخ على محمد الكناني، ببري، فأقام بحقنا أتم قيام، وكذلك صهره خوجلي بن أحمد، وقد بالغوا في إكرامنا على وجه الإخلاص والمحبة والأدب الكامل، وفي مدة إقامتنا بمنزل الشيخ المذكور قد زارنا صاحب المآثر الجميلة والهمم الجليلة، سعادتلو الزبير رحمة باشا، أدام الله عليه نعمه وكفاه نقمه، ثم بعد زيارته لنا زرناه بمنزله الذي بالخرطوم ورجعنا إلى بري.

مقابلة الحاكم العام في الخرطوم:

ولم نزل بمنزل الشيخ المذكور إلى أن جاء أوان سفر الوابور السواكنية، فذهبنا لسعادتو الزبير رحمة باشا بقصد الوداع فاستحسن مقابلتنا للحاكم العام ونجت باشا، فاستأذناه في السفر إلى الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذن من أول مرة على إنشراح قلب وطيب نفس. ومن ثم توجهنا إلى الحلفاية، الشرقية التي على شاطيء النيل فالتقي بنا ولدنا عوض أفندي بن محمد الكردي، فأنزلنا بمنزله وأكرمنا ومن معنا، واجتمع بنا في منزله خلق كثير منهم من جاء للزيارة والبعض منهم لأخذ الطريقة، وقد أجزنا منهم جماعة وبتنا عند تلميذنا المذكور تلك الليلة وفيها جاء لاحقا بنا الزبير رحمة باشا وتلميذنا السيد محمد الامين بن محمد عمار بقصد الوداع، وقد أهدي لنا تلميذنا المذكور شيئا من الفلوس، وقد بات المذكوران معنا إلى أن أصبح الله بالصبح.

من الخرطوم إلى سواكن:

ودخلنا الوابور ومحنلا منها أعز موضع وأشرفه، وقد صحبنا في هذا السفر جماعة من التلامذة وأولادنا كالشيخ حامد بن محمد العباسي، وولدنا الشيخ احمد الطيب، والشيخ عبدالله بن محمد بن إبراهيم، وغيرهم وعددهم يبلغ عشرين ونيفا، وقد صحبنا من الفضلاء في السفر المذكور جماعة من أعيان البلاد، كالفاضل الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة بن حسين، الفولاني، وغيره من الفضلاء، ثم إن الوابور سافرت بنا عند طلوع الشمس إلى العشاء الآخرة، وعندها وصلت بنا الداخلة وقد قطعت في سبرها هذا محطات الخرطوم البحري، ثم الكدرو بضم الراء، ثم قبة الكباشي، ثم ولد رملي، ثم الرويان، ثم جبل جاري وهو المعروف بجبل قري بفتح

القاف وكسر الراء المشددة، ثم الميجة وهي فص الأصل الميكمة وإنما غيرتها الألفاظ كما غيرت قرى بجاري، ثم بان النقاء ثم القوز، ثم شندي وقد جئناها أول الظهر، ثم التراجمة، ثم كبوشية، ثم جبل أم على، ثم المحمية، ثم العالياب، ثم عشرة محطة وباتت بنا الوابور في الداخلة المذكورة وسافرت بنا منها ضحوة الأحد وليلة الإثنين وعند أول ظهر اليوم الواقع أثنا عشر يوما من سفرنا من محلنا قد وصلت بنا سوان، وقطعت في سيرها هذا الداخلة وتسمى أتبرة كما ذكرنا، ثم الزلط، ثم الهودي، ثم الدوجايا، ثم الحديقة، ثم أوجرين، ثم الذهيب، ثم توجنا ثم سقديت ثم الروجل ثم مسمار ثم مياس ثم تلجواريت ثم شدياب ثم كاس ثم إنها، ثم هيا، ثم تهاميم، ثم أورهيب، ثم براسيت، ثم براميو، ثم شكن، ثم صمت، سم سنكات، ثم أديت، ثم جبيبت، قم قمتيب، ثم إربا، ثم اسوت، ثم كموسانة، ثم اكوات، ثم أوبو، ثم أدارويب، ثم سلوم، ثم هندوب، ثم الشاطة، ثم سواكن.

لقاءات ومباحثات في سواكن:

وكان نزولنا في سواكن عند الرجل الفاضل الكريم الشيخ محمد الطاهر بن محمد كشنة واجتهد في إكرامنا ورعايتنا، وله أطال الله بقاءه أخلاق جميلة وانه تأوي الحجاج في هذه البلدة لأحد مثله، وذلك لفضله وقيامه بخدمتهم وصدور الضمانة منه لهم إذا احتاجوا إليها مع سعيه لهم بالحسنة، وقد أحسن معنا الأدب وأنزلنا في بيته الخاص به وأكرمنا ورعانا فجزاه الله خيرا.

ونحن بمنزله فقد اتصل بنا الشاب المبارك محمد المجذوب بن حمد تينة بن محمود، ورأينا منه نية صالحة وخدمنا بقية ايام إقامتنا بسواكن خدمة خالصة ليس له فيها قصد إلا وجه الله تعالى.

وايضا اجتمع بنا ونحن بالمنزل المذكور الأخ الفقيه عبدالسلام بن الفقيه محمد بن الحاج حمد التيجاني، وهو مبارك جدا وعلى بصيرة في دينه، وجرى بيننا وبينه كلام في الطريقة فحصلت منه فينا محبة قل أن توجد في أبناء هذا الزمن، وذلك لطلبه للحق وقوة إيمانه، وقد حكى لي ونحن في أثناء كلامنا معه أنه سمع والده المذكور يقول: – سألت شيخنا الولي الكامل العالم الفاضل الشيخ سعدالدين الفولاني

رحمه الله تعالي عن أكمل ولي في بلاد السودان قال:- الاستاذ أحمد الطيب بن البشير قدس سره.

ثم قال لي ومصداق هذا الكلام ما حدثتني به المرأة الكريمة الفاضلة أمونة بنت عبود،زوجة الشيخ الأزيرق رحمهما الله تعالي، فقالت: أن جميع ما حصل لي من سعة الدنيا وعمل الآخرة فهو من بركة سيدي الشيخ أحمد الطيب رضي الله عنه وذلك أني قد زرته في صغري مع والدتي فقالت له والدتي: أدع الله تعالى أن يرزق ابنتي هذه خيرا وزوجا مباركا، قالت: فوضع يده الشريفة على رأسي وقال: وهبتها خير الدنيا والآخرة، فكان الأمر كما قال أهـ قلت: وهذا من شواهد قطبانية الأستاذ وقوة همته العرشية وأسراره الإلهية وأنفاسه الربانية.

وصف مدينة سواكن:

ولنرجع إلى ما نحن فيه من ذكر سواكن، أعلم أن هذه المدينة واسعة جدا وفيها تجار وأغنياء وأغلب أهلها ماثلون إلى حب الدنيا والتلاهي بها والتشاغل والغالب من لغاتهم الرطانة، وطعامهم الذي يقتاتونه اللحم والأرز، وماؤهم ملح تتغير به الطباع ولهم ماء عذب في مكان مخصوص لا يتوصل إليه إلا بالشراء وهو في خارج المدينة، وأما ما بداخلها فهو ضار بالمقيمين ولاسيما الغرباء وفي البلدة المذكورة ثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة:

1- جامع العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجذوب، ولد قمر الدين رضي الله عنه.

2- جامع السادة المراغنة،نفع الله بهم وبقرب مسجدهم هذا قبر السيد تاج السر بن السيد سرالختم.

3- مسجد الشناوي بيك.

وأكثر اعتقاد أهل هذه البلدة في السادة المراغنة وبعضهم في الشيخ محمد المجذوب، وأما القطب العظيم الاستاذ الفخيم سيدي الشيخ ابوالفتح الشاذلي، رضي الله عنه فهو مدفون خارج البلدة لكن قريب منها، وعليه قبة وله بركات مشهورة وكرامات مذكورة نفعنا الله تعالي به، والدعاء عند قبره مستجاب وقد جرب، ومدفون جوار قبته الاستاذ سيدي الشيخ عبدالرحمن،بن القطب الأعظم سيدي الشيخ احمد الطيب قدس

سره، وكانت وفاته بعد رجوعه من الحج عام تسعة وثمانين من بعد الألف والمائتين.

ثم بعد إقامتنا المذكورة صار توجهنا إلى الوابور من بعد ما أخذت منا الأجرة، الخاصة بنا ومن معنا من التلامذة والأولاد، وكذلك الأمنية والكرنتينة، والبزبورت، وذلك خاص بكل واحد من الحجاج سواء كان صغيراً أو كبيرا، وجملة ما يؤخذ من الشخص الواحد ستة عشر ريالا ونصف ريال، عشرة منها في الابنية، واثنا عشر قرشا ونصف قرش في البزبورت وثلاثة قروش في الكرنتينة، وكان دخولنا ظهر الاربعاء، وهو الرابع والعشرون من ذي القعدة.

عبور البحر الأحمر

ويصف الشيخ عبدالمحمود في هذا الجزء رحلته داخل البحر الأحمر من سواكن إلى بورتسودان التي أشار إلى أنها كانت تسمى قبلئذ بالشيخ برغوث في رحلة إلى ميناء جدة استمرت نحو من ثمان عشرة ساعة.

واصفا اجراءات تعقيم الحجيج، قائلا:

ثم بعد دخولنا في الوابور قد بتنا فيها ليلة الخميس إلى ضحوة يومه، ثم سافرت بنا إلى أن وقفت في بورت سودان وهي المشهورة قديما بالشيخ برغوث، ووقوفها هذا لأمر خاص بها ثم بعد مغيب شمس يوم الخميس سافرت بنا ليلة الجمعة وعند ضحوتها قطعت بنا مسافة البحر.

ثم جاءت السنابيك وهي سفن صغيرة حملتنا إلى موضع في جزائر البحر قريب من الساحل فيه بناء ومدير وعساكر من جهة السلطان عبدالحميد خان الأمراء المختصون به في ذلك المحل وهو الكرنتينة لتبخير ثياب الحجاج بالابخرة المعلومة لديهم زعما بأنهم يذهبون بتلك الابخرة الأمراض عنهم وفعلوا ذلك لبعض الحجاج وأما نحن فقد حفظنا الله تعالى منهم فلم يستطع أحد أن يتوصل إلينا بذلك، وكذلك جميع من رأوه محرما من الحجاج.

ثم توجهت بنا السفن إلى بر مدينة جدة بضم الجيم فجاءنا العساكر عند وصولنا إلى البر وأدخلوا الناس في حصن من الأحطاب له طريقان الأول يتوصل به

إلى الثاني، والدخول فيه بريال أبي عشرة والخروج من الطريق الثاني بقرشين، وأن وصول للحجاج إلى مدينة جدة إلا بهذين الطريقين.

أيام في جدة:

وصف الكاتب حياته بجدة وزياراته ووقف السيد أحمد بن إدريس قائلا: ومن بعد خروجنا بتنا ليلتين في المدينة، ثم إنتقلنا إلى محل ظلمة بفتح الظاء المشالة واللام ثم ميم يعدها هاء ساكنة، وهذا المحل كان سابقا ينزل فيه السيد أحمد بن أدريس، رضي الله عنه، وقد أمر السيد أحمد ظلمة أن يبني فيه بناء للحجاج، فبناه قاصدا به وجه الله تعالى.

وكذا في مدة إقامتنا بجدة قد سألنا عن أهل الطريقة السمانية فوجدنا فيها رجلا مباركا يقال له الشيخ عبدالقادر بن الشيخ محمد صالح بن الشيخ عبدالغفار تلميذ الشيخ أبي الحسن،السماني، وشهرته بين أهل جدة بقدورة فطلبنا إلى منزله.

ثم رغبنا أن نزور قبر سيدي الشيخ صديق بن عمر خان، تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عمر خان تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عبدالكريم السمان رضي الله عنه، فذهبنا إليه وذلك ليلا فوجدنا باب الزاوية التي هو بها مغلقا، وما وجدنا هناك خليفة ولا تلميذا لأن خلفاء الشيخ وتلاميذه قد انقرضوا في هذا المحل وليس له ذرية، لا ذكر ولا أنثي، ثم رجعنا إلى منزل الشيخ عبدالقادر المذكور ومنه إلى محل نزولنا سابقا.

وصف مدينة جدة

يصف الشيخ عبدالمحمود ذاكرا الإزدحام السكاني ومساجدها والطرق الصوفية بها وأسماء الحارات والعمارات المرتفعة قائلا:

وأعلم أن مدينة جدة هذه بلدة واسعة مملوءة بالخلق، وهم على أصناف متعددة وأجناس مختلفة لا يعلم مداهم إلا الله تعالى والغالب عليهم البيع والشراء، وفيها خمس جوامع تقام فيها الجمعة وهي:

1- مسجد الشافعي.

2- مسجد الحنفي

3- المعمار (بكسر الميم وسكون العين المهملة)

4- مسجد عكاشة بتشديد الكاف

5- مسجد الباشا

وفيها من الزوايا ما يزيد على عشرين زاويا منها ماهو منسوب لسيدي الشيخ مصطفي البكري ومنها ما هو منسوب لسيدي الشيخ محمد السمان، والشاذلي والسنوسي وابن ادريس الفاسي، وغير ذلك وفيها أربع حارات:

1- حارة اليمن.

2- حارة البحر.

3- حارة الشام

4- حارة المظلوم، والمظلوم المذكور رجل صالح مثل ظلمة وقبره في المدينة هذه وقد زرناه.

وأهل هذه البلدة يطيلون البناء جدا وربما قارب بعض بناياتهم نحو المائة ذراع وعليها سور ولها أبواب عليها عساكر وشرابهم من ماء الأمطار.الأحرام من جدة. ثم أحرمنا من محل نزولنا في برها ولايخفي علينا قول بعض العلماء أن الأحرام يجب أن يتم في البحر عند محاذة الجحفة فقد تبعنا في احرامنا هذا بعض النصوص القائلة بذلك قال سيدي احمد زروق رحمه الله تعالي في شرح الرسالة: لايحرم بحري إلا بعد نزوله على الساحل لاحتمال رده بالريح.

في طريق مكة:

ثم من بعد الأحرام والتلبية قد توجهنا إلى البيت الحرام فبتنا في بحره بفتح الباء وسكون الحاء وفتح الراء وهي في موضع فيه بعض جند من العساكر يأتون لمن نزل عندهم من الحجاج بالماء والحطب وماؤهم ملح.

وأعلم أن طريق الحجاج من جدة إلى مكة المشرفة كثير الماء والطعام، وذلك أن العساكر المرابطين هناك لهم مواضع، كل موضع قريب من الآخر، وفي كل واحد قهوة وطعام وشراب للذي يشتري والبعض للأجر والثواب فقط لا شراء فيه ولا بيع، وأيضا من مكة إلى منى، ومن مني إلى عرفة.

حمام الحرم في الإستقبال، وقد أعجب الشيخ عبدالمحمود بحمام الحرم حتى جعله من معالم رحلته قائلا:

ثم في بحره حصل منا السري ليلا، فلما اقترينا من مكة ضحوة من النهار تلقانا حمامها ونزل ما بيننا ومكث مدة من غير استيحاش منا، فأخذنا من ذلك فألا، ثم إني أنشدته:-

أيا حمام الحرم المشهور قـد جئنـا بكامـل السـرور
ومـا أتيـت إلا بـأمور مصـلحة للـنفس والضـمير
سر ولكن ليس يدريه سوي حبـر همـام كامـل نحريـر
مطهر القلب من الأغيار مسـتغرق فـي حضـرة القـدير

في الغسل لدخول مكة:

وبعده بيسير جاءنا المطوفون وساروا معنا إلى أن دخلنا مكة، وقد سلكنا عند دخولنا طريق البئر المشهورة بطوى للاغتسال منها، وحكم الغسل هذا أ نه هو الغسل الثاني من اغتسالات الحج، وحكمه الندب، وكذلك الغسل الذي قبله، وأما طوي المذكور فهو الوادي الذي تحت الثنية العليا وهو بفتح الطاء مقصور كما قال الاصمعي وضبطه في توضيحه بتثليث الطاء، والفتح أشهرها، وحكي القرطبي عن ابن بطال فتحها مع المد.

ثم من بعد الأغتسال بادرنا إلى دخول المسجد بباب بني شيبة المعروف الآن بباب السلام وكان يعرف قبل بباب عبد شمس وعبدمناف وهو من ثلاثة أبواب.

ويستحضر عند رؤية البيت من الخشوع في قلبه والخضوع في جوارحه ما أمكن لأن هذه عادة الصالحين وعباد الله العارفين لأن رؤية البيت تذكر وتتشوق إلى رب البيت ولا يركع الحاج تحبة المسجد لأن تحيته الطواف.

وعند وقوع بصري على هذا البيت العظيم قد دخلت هيبته في سويدا قلبي وسرى حبه في كلي ولبي.

في التوجه إلى منى:

فإذا كان اليوم الثامن أحرم فيه من لم يكن أحرم قبل ذلك، ثم يتوجه إلى مني إن لم يكن يوم جمعة، وإلا فلا يتوجه إلا بعد صلاة الجمعة لوجوبها عليه إن كان مقيما، وأما المسافر فأولي به الإسراع للمناسك، وقدم بعضهم الجمعة لأدرك فضيلة الحرم.

ويسن لكل من ارد التوجه إلى منى أن يتوجه إليه بقدر ما يدرك بها صالحة الظهر فإذا وصل إلى منى نزل بها حيث شاء، ويسن المبيت بها وأن يصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء كل صلاة في وقتها قصرا إلا المغرب واستحدث بعض العلماء النزول بمسجد الخيف فيصلي فيه الصلوات المذكورة ويتنفل عنه الأحجار التي بين يدي المنارة فإنه يصلى الله عليه وسلم صلى ثمة، كذا البنائي على منسك الحطاب.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه نزل بمسجد الخيف وصلى به قائلا: أقول وأنا بحمد لله تعالي قد نزلت في ذلك المسجد وصليت فيه الصلوات المذكورة مع المبيت وإحياء هذه الليلة بقدر الطاقة بالدعاء وغيره، وهذا المسجد المذكور كثير البركات، شهير الخيرات، قد نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى، ويواصل الشيخ عبدالمحمود وصف شعائر الحج قائلا:

في النزول بنمرة:

فإذا وصل الحاج إلى عرفات يندب له النزول بنمرة، بفتح النون وكسر الميم وراء مهملة ويجوز أسكان الميم مع فتح النون وكسرها، قال الفاسي عن المحب الطبري موضع بعرفة وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم على يمين الداخل من المأزمين، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تنزل بها ثم تحولت إلى الاراك.

قطع التلبية:

~~ويتوجه الحاج من بعد غسله إلى مسجد نمرة ويستمر يلبي إلى رواحه مصلى عرفة فينتظر الأقصر منهما أي من رواح مصلى عرفة ومن زوال الشمس، ثم يقطع التلبية فلا يلبي بعد ذلك على المشهور إلا أن يكون أحرم بعرفة بعد الزوال فيستمر يلبي لجمرة العقبة.~~

في خطبتي يوم عرفة:

ويستحب للإمام أن يخطب بعد الزوال خطبتين، وفي توضيح المناسك، فلو خطب قبل الزوال وصلى بعده أجزاه (ابن عرفة) ولو صلى بغير خطبة أجزاه، أبوعمران إجماعا، كذا في الخرشي، ثم أن يجلس بين الخطبتين ويعلم الناس فيهما ما يفعلونه إلى اليوم الثاني بمني وبقية مناسك الحج التي تفعل إلى اليوم الثاني بمنى

من صلاتهم الظهر والعصر قصرا وجمعا بعرفة ووقوفهم بها وما له من الآداب ويحضهم على إكثار الدعاء والتهليل بالموقف وكيفية دفعهم من عرفة بعد الغروب، ومبيتهم بمزدلفة، وجمعهم بها بين المغرب والعلماء مع قصرها، ووقوفهم بالمشعر الحرام والدفع منه إلى منى، والإسراع في وادي محسر ورمي جمرة العقبة، والحلق والتقصير والنحر والذبح وطواف الإفاضة.

في العمرة:

ثم من بعد إقامتنا وملازمتنا للحرم للصلوات وغيرها قد ذهبنا للتنعيم مع العمار للعمرة، وهي شرعا عبادة يلزمها طواف وسعي وإحرام فقط اهـ – خرشي وفي العدوي وفي مشروعية العمرة قبل الحج قولان أهـ.

في طواف الوداع:

ثم من بعد فراغنا من الزيارة المذكورة قد طفنا طواف الوداع وأعلم أن هذا الطواف شرع للخارج من مكة، وأما المقيم بها فلا يشرع في حقه وهو مندوب ثم إنه ليس مقصود لذاته، بل ليكون آخر عهد الحاج بالبيت، ويبطل التوديع إقامة ما زاد على ساعة فلكية بشرط أن تكون الإقامة بمكة أو بمحل دون ذي طوي فإن كانت بذي طوي أو بالابطح لم يبطل وداعه، والمراد ببطلانه بطلان كونه وداعا لا بطلان ثوابه، لأن الطواف صحيح في نفسه. وإن تركه رجع ما لم يخف فوات رفقته الذين يسير بسيرهم، ويستحب له إذا فرغ من طواف وداعه أن يقف بالملتزم للدعاء قال في الواضحة: والصق صدرك ووجهك بالملتزم ثم استلم الحجر وقبله إن قدرت على تقبيله، ثم انفر إلى بلدك فقد قضي حجك اهـ قلت: واستحسن بعضهم عدم تقبيل الحجر وهو معارض لقول الواضحة وهو الأحسن.

في الخروج من المسجد الحرام:

ثم ينبغي للخارج من المسجد أن يخرج من باب بني سهم، وهو باب العمرة والناس الىن لايخرجون إلا من باب الوداع تفاؤلا بالعودة إلى مكة المشرفة لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من جهة باب الوداع عندما هاجر إلى المدينة المنورة ثم عاد إلى مكة المشرفة وخرج في حجة الوداع من باب العمرة، ثم مات في السنة التي تليها، فإذا خرج فلا يرجع القهقري فإن ذلك مكروه، أو خلاف الأولي، وهو من فعل

الأعاجم، بل يمشي مشية المعتاد، والأدب والخشوع في قلبه وكذلك يفعل في خروجه من المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأزكي السلام.

في الخروج من مكة المكرمة:

فإذا خرج الحاج من مكة فإن خروجه من طريق المدينة المنورة كأهلها وأهل مصر والشام ونحوهم، فيتسحب له أن يخرج من كدى بضم الكاف والقصر أقل الصاوي على الدردير) قال بعضهم ملتمسا لذلك حكمه، وإنما طلب من قاصد النسك في حال الدخول أن يدخل من كداء بالفتح وفي حال الخروج من كدي بالضم للإشارة إلى أنه يدخل طالبا للفتح وملتمسا للعطايا، فإذا خرج بضم ما جازه ويكتم امره، ولايشيع سره اه.

ويستحب له أن يكبر في انصرافه من الحج والعمرة على كل شرف أي مكان مشرف وأن يقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائيون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ويقول ذلك ثلاثة أيام حتى يخرج من أرض تهامة.

حكم الزيارة للمدينة:

السودانيون من الشعوب العاشقة للنبي صلى الله عليه وسلم ويعتقد كثير منهم أنه لايتم حج بغير زيارة قبر الرسول والصلاة بمسجده أيام تطول وتقصر ويفصل لنا الشيخ عبدالمحمود في رحلته حجة مشروعيتها وحكمها قائلا: وأما حكم زيارته صلى الله عليه وسلم ففيه اختلاف بين علماء الشرع فمنهم من قال بوجوبها ومنهم من قال بندبها وأكثر العلماء من الخلف والسلف قال بندبها دون وجوبها وعلى كل من القولين فهي مع مقدماتها، من نحو السفر إليها ولو بقصدها فقط دون أن يضم إليها قصد اعتكاف أو صلاة بمسجده صلى الله عليه وسلم، فهي من أهم القربات وأنجح المساعي ومن ثم قالت أئمة الأحناف: إنها تقرب من درجة الواجب، وقال بعض المالكية: إنها واجبة، وقال غيرهم منهم يعني أنها من السنن الواجبة.

في الرحلة من مكة إلى رابغ:

في طريقه إلي المدينة يوضح الشيخ عبدالمحمود قدرته على فض النزاعات وإدارة الحوار مع الشيعة قائلا:

اعلم وفقنا الله وإياك على الصدق وأخباره الحق وآثاره إلى خروجنا بالسفر من مكة المشرفة بعد أداء فريضة الحج إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم كان في يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة من ذي الحجة عام أربعة وعشرين من بعد الثلاثمائة وآلاف ووصولنا إلى جدة في عصر الجمعة من اليوم الثاني من سفرنا، فأقمنا فيها نحو ثلاثة ايام ثم ركبنا البحر متوجهين إلى رابغ، فوقف بناء السنبوك في البحر لفقد الريح لمدة خمسة ايام، وفيها قد هل شهر المحرم وكان معنا يومئذ كثير من الحجاج، وقد حصل لهم مع بعضهم شقاق ونزاع، ولولا حضورنا لثارت الفتنة بينهم، ثم من بعد إسكات الفريقين قد أنشأت من نفسي قصيدة في مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأنشدتها لكن ضمنت فيها شيئا من أحوال المذكورين وتربية تخصهم لمزيد التحبب والأدب مع بعضهم.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه أدار حوار مع الشيعة في طريقه إلى المدينة وضح فيه رأي أهل السنة في الرافضة قائلا: "ثم لما أوقع الله المحبة بين المذكورين والمراعاة منهم لبعضهم قد رايت جماعة من أهل صنعاء اليمن وهم **يكثرون من** الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لا يذكرون أصحابه في صلاتهم عليه، فقلت لأحدهم – حين رأيته معظما من بينه وأيضا على معرفة – لم لا تذكرون الأصحاب في صلاتكم على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: مذهبنا يأبي ذلك، فقلت له: ما مذهبكم.؟ قال: مذهب زيد بن على بن الإمام الحسين، فعلمت بذلك انه من الشيعة والرافضة، ثم قلت له: إذا وصلت المدينة المنورة وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا هل تسلم على صاحبيه ؟ قال: لا ولكن من بعده فإني أسلم على علي كرم اله وجهه، فقلت له: أين هو ؟ قال: مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستدل على ذلك بما يعتمده أصل مذهبهم قلت له هلا علمت أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوبكر، ثم عمر ؟ قال: لا أعلم ذلك وإنما الخليفة على بن ابي طالب كرم الله وجهه.

توقف السنبوك في البحر:

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ومن بعد وقوف السنبوك عن المسير بنا في الأيام المذكورة بأسباب انقطاع الريح قد ضجت الناس بالدعاء، وتكدرت منهم الخواطر،

وكثر الخوف، فاخبرت حينئذ التلامذة بقراءة مولدنا الفيض السحري والبيان السحري فلما ختموه بالقراءة ودعوا الله تعالي تيسير بعض ريح ثم أني استغثت بهذين البيتين وهما من إنشائي:

ياسيدي يارسول الله قد وقفت عن المسير بنا السنبوك ففي اللجج

غث بريح سريع كي نزوركم في روضة نورها أضوا من السرج

فازداد الريح في الحال ولم يزل في ازدياد إلى أن وصلنا رابغ.

أيام في رابغ:

ومن بعد خروجنا من البحر من السفن الصغيرة جاءت الجمال وحلمتنا إلى مدن ذلك البلد، فنزلنا قريبا من سوقه، وهذا البلد وهو ينسب لحرب وهم طوائف لايحصون عددا، ورئيسهم القاطن فيه والقائم بأحكامه يسمى الشيخ حسين ولد سبيريك وهو رجل فصيح شجاع صاحب بأس وقوة ومال كثير، وهو أحد أيادي على باشا سيد مكة الآن وشريفها، بل وأظنه من أعظم اياديه، وفي البلد هذا موضع بقرب السوق فيه عساكر من جهة سلطان الإسلام عبدالحميد خان، وأسلحة نارية من مدافع وبنادق وغيرها، والعساكر المذكورون فهم تابعون للشريف المذكور في أمره ونهيه، ولا يخرجوا من يد رئيس البلد في أمر ما، وقد اجتمعنا به وهو فاضل وفيه نفع للحجاج وبلده مشتمل على سوق وتجارة وجامع فقام فيه الجمعة وهو خصب كثير المياه والنخل والزرع والخضر، ولاسيما البطيخ فإنه كثير جدا وأيضا الحوت، وهو بلد آمن كثير الثمرات وفيه مسيل كأنه النيل في العرض، تجري به مياه الأمطار عند نزولها من الجبال إلى البحر ولها دوي عند نزولها كدوي الرعد، وحوله زرع كأنه زراع جزائر النيل لكن مع ما ذكر من الأمن فعلى العاقل أن لا يغفل هناك عن نفسه، وكانت إقامتنا في هذه المدن إثني عشر يوما لفقر الجمال وقتئذ.

منازل طريق المدينة:

ثم جاءت الجمال وحملت القافلة بالبر إلى المدينة المنورة وذلك كان في ظهر الجمعة بعد صلاة الفرض سادس عشر يوم من محرم، فبتنا قريبا من البلد ثم أصبحنا وأقمنا إلى أن انتصف النهار من يوم السبت، ثم سافرنا وذلك كان بالطريق المسمي بالفرع بفتح الفاء وسكون الراء ثم عين مهملة، وهو مشهور في الطرق، وهو

أسهلها وأكثرها ماء، وفيه عيون متفجرة نحو السبع أو الثمان ماؤها كأنه ماء النيل في العذوبة، وحول تلك العيون نخل كثير وزرع إلا أنه من جهة المخافة كغيره من الطرق، والمطلوب في هذا الطريق وغيره صحبة الزاد والأسلحة النارية والرجال وإتقاء الكلمة فمن غفل عن ذلك فهلاكه أقرب من سلامته.

وقد سافرنا في هذا الطريق بالنهار دون الليل إلى أن وصلنا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكي السلام.

وقد نظمت المنازل التي ينزل فيها الحجاج في هذا الطريق، إلا أن مبدأ نظمي لها من جدة لكونها مبدأ سفرنا بالبحر إلى رابغ، وفي البحر لم نعرف المنازل إلا من رابغ إلى المدينة المنورة فإنها ظاهرة وقد سألنا من هناك عن المسافة البرية التي بين جدة ورابغ فقال ثلاثة أيام وهذا هو النظام المذكور:

من جـــــدة الغراء فكان السفر	لرابــغ فــي فلــك لــه أذكــروا
ومنه كـــــــان نزول القــافلة	فـي بئـر رضـوان دع المغافلـة
منها أبوضــــــباع وهو المنهل	والـبعض فـي أم العيـال ينـزل
وذا وذاك فهـــــــما عـــينان	بمـاء مـدى الأوقـات تجريـان
ومن هنا فالمـــــــنزل الغجير	عــين ولكــن لهــا تفجيــر
وبعده الغــــــجير كاسم الأول	لكـن لـه الشـفا أضـيف فأعقـل
من بعده النزول بئر العــضب	وبعـدها آبــار علــى الأحــب
من بعدها مدينة النبي المصطفى	صـلى عليـه الله مـا دام الوفـا

ولنذكر بعض ما عثرنا عليه في الكتب من بعض هذه المنازل قال في الخلاصة:- رابغ بموحدة بعد الألف ثم غين معجمة واد من الجحفةاهـ قال في حرف الألف منها دارة حجارة جبل كبير لمزينة فوق قدس مما يلى الفرع يخرج من جوانبه عيون عليها قري كالفرع وأم العيال صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها والمضيق والمحضة والوبرة والخضرة والفعوة وأوديتها تصب في الأبواء ثم بواد يسمى وادي حقل به قرية يقال له وبغان وخلف دارة واد فيه قري قاله عرام اهـ - ثم قال من بعد ما ذكر هذا في موضع من الحرف المذكور:- أم العيال عين عليها ساقية وسبق القول في

دارة: أنها صدقة فاطمة قاله عرام وقال ابن حزم هي لولد طلحة بن عبيدالله انفق عليها ثمانين ألف دينار وعلم خراجها خاصة أربعة آلاف دينار وتسقى أزيد من عشرين ألف نخلة اهـ – وأما الآبار المشهورة بين الناس بآبار على فلم نقف على نسبتها عند العلماء لعلي كرم الله وجهه وقد سمعت بعض أهل الحجاز يشهرون ذلك المحل ببئر المآسي وبعضهم يقولون خلاف ذلك.

وأعلم أنه عند مبيتنا بالآبار المذكورة قد رأى بعض الحجاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قبل عنقي ويقول لي جئت أيها الحبيب قد قبلناك وجميع من معك من الحجاج.

لقاء الشيخ محمد حسن السمان:

وكان دخولنا المدينة من الطريق الشرقي لأن ورودنا عليها كان من جهته ثم من بعد دخولنا في السور الأول قد جاءنا رسول فخر الأزمان، ونادرة الاقران، ونخبة أهل الشرف والشأن، سيدي واستاذي الشيخ محمد حسن السمان رضى الله تعالي عنه وعن أبنائه وطلب أن لايكون نزولنا إلا عنده، وكان يومئذ حكم الكرنتينة شهير بالبلد فما من حاج إلا وهو ينزل خارج البلد في تلك الأيام، وإذا أراد زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصلاة في مسجده فلا يكون ذلك منه إلا بنفسه فقط دون أمتعته.

ثم إن هذا الأستاذ العظيم، اللوذعي الفخيم، من اعتنائه بنا وكرمه لنا قد أنزلنا رضى الله عنه في بلاده وفي ساحة واسعة مشتملة على بسان وساقية وفيها قصر عظيم، فأقمنا فيه وحوله خيم للتلاميذ والحجاج الذين معنا، وذلك خارج السور الداخلي، فما كانت من إقامتنا في هذا المحل إلا نحو ساعة حتى جاءنا الاستاذ فنفسه ونقلنا مع وجود الكرنتينة اعتمادا منه على الله تعالى إلى بيته المكرم وسوحه المعظم، ومعي ساعتئذ العابد الفاضل الصفي الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة الفولاني أدام الله علينا وعليه رضوانه وأمانه، وأيضا خدامنا من التلاميذ.

في بيت أبي بكر الصديق:

فأنزلنا الاستاذ في بيت أبي بكر الصديق ودار خلافته إلى أن توفي وأنزل الشيخ محمد التوم في موضع آخر لائق به، وأعلم أن بيت ابي بكر الصديق رضي الله عنه هذا هو المشهور اليوم بزاوية السمان، وقد دخل هو فيه قدس سره الخلوة

عشر سنين، وسبحته التي كان يذكر الله تعالى بها وهي إلى اليوم في زاويته وقد رأيناها وتبركنا بها، وكانت الزاوية المذكورة من قبل وجود سيدي للشيخ محمد السمان رضى الله عنه وظهوره تنسب لسيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه لأنه كان مقيما بها، ويقال لها أيضا المدرسة السنجارية كما في سلك الدرر، وكان سيدي مصطفي بن كمال الدين البكري رضي الله عنه إذا ورد المدينة فإنه لاينزل في غيرها، ويقول: إني أشم رائحة جدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه في هذه الزاوية.

وكان جدنا الأستاذ الشهير، والقطب الكبير، سيدي الشيخ أحمد الطيب بن سيدي البشير الشريف العباسي رضي الله عنه قد جلس فيها سبع سنين من بعد أخذه الطريقة الصوفية على صاحبها نفعنا الله به، وجميع ما حصل له من الفيوضات والأسرار، والعلوم والأنوار، والرتب العلية، والمكاشفات القدسية، في هذا الموضع وهو محلنا قديما وقد أكرمنا الاستاذ بالنزول فيه لبركته وخيره ومزيد نفعه على غيره، وكفى شرفا أنه بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودار خلافته إلى أن توفي وقد أنشدت عند دخولي فيه هذه الأبيات فرحا مسرورا:

هنو لعبدى مذنب بنزوله ... في بيت صديق النبي أبي بكر
لو ما أراد به الإله سعادة ... ما كان في دار الخلافة يستقر
في ذا النزول إشارة تبدو لمن ... بمعاني أسرار المعارف قد ظفر
هي من يرى عند الرفيق نزوله ... لاشك مقبول لدى الهادي المبر

زيارة النبي صلي الله عليه وسلم:

ثم من بعد نزولي في الزاوية المباركة قد توضأت ودخلت المسجد النبي وصليت فيه تحية المسجد ويستحب أن تكون في محراب النبي صلى الله عليه وسلم أو في غيره مما قرب من الروضة، ثم من بعد التحية والدعاء الذي يكون بعدها وهو هذا: اللهم إن هذا حرم رسولك صلى الله عليه وسلم الذي حرمته على لسانه، ودعاك أن تجعل فيه من الخير والبركة مثلى ما هو في حرم مكة الحرام، فحرمني على النار، وأمني من عذابك يوم تبعث عبادك، وارزقني فيه حسن الأدب وفعل الخيرات

وترك المنكرات، قد بادرت إلى استقبال الوجه الشريف خاشعا خاضعا، فلما فرغت من السلام عليه صلى الله عليه وسلم ألهمت من البيتين وأنا في المحل فأنشدتهما وهما:-

في حال بعدي ناظر لجمالكم واليوم إني واقف بالباب
انظر إلى بنظرة أحيا بها وأفوز في الدنيا ويوم مآبي

فحصلت منه لي صلى الله عليه وسلم عند ذلك نفحات وبركات، ثم سلمت على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتوسلت بهما إلى الله ورسوله فيما له طلبت وقتئذ ثم رجعت إلى محل الوقوف الأول فأنشدت أيضا:

يأيها المقصود من كل الوري أني وقفت ببابكم أرجو القرى
وتركت أولادي وحاشتي ومن يعزي إلي من الورى كلا ورا
وأتيتكم بمحبة قلبية وبها فدمع العين جهرا قد جرى
أنا ضيفكم ونزيلكم أنا عبدكم أرجو شفاعتكم وفوز أكبر
وأكون في الدنيا بها وكذا غد في القرب عندك مثل من لك أبصرا

ثم انصرفت مراقبا الحجرة، فجلست في موضع من المسجد ملاحظا للروضة الشريفة وكذلك حياته المكرمة في قبره المكرم صلى الله عليه وسلم يعلم بزائريه على اختلاف درجاتهم وأحوالهم وقلوبهم وأعمالهم.

أخيار المدينة وعساكر السلطان في موكب الوداع

ثم من بعد الخروج المذكور قد أحضر ألينا تلميذنا الصالح الصفي الكامل الوفي الشيخ محمود بن عبدالقادر بن عبدالجواد المدني فرسا فركبنا عليها لداء بنا، ولولا ذلك لما ركبنا عليها في هذا الموضع الشريف، وقد جاءنا للوداع عند ذلك كثير من أهل المدينة نفعنا الله بهم من علماء وأخيار وأشراف، ولم يزالوا يمشون معنا وقد الححت في رجوعهم فلم يطب خاطرهم بذلك وذلك لشدة محبتهم، فسلك بنا الخبير طريق سيدي عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالك ابن سنان والد ابي سعيد الخدري، فودعناهم ومر بنا أيضا بزاوية سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه.

ثـم جـاءت العسـاكر السـلطانية ومشـت أمامنـا بالأسـلحة الناريـة تعظيمـا وإجلالات، ولم يخطر لنا أن ذلك يكون لنا ولم نر له طريقة مطلقا إلا أن نقول إنه إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتفق لأحد قبلنا ولا معنا مثل هذا مع كثرة الأخيار والعلماء والصالحين (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

وشاهد ما ذكرناه من أن هذا إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن بعض الحجاج المذكورين بالخير قال لي: قد رأيت عند وداعك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليك من باب فاطمة الزهراء عليها السلام وضمك إليه وقد أعطاك ثلاث قطع إحداها خضراء والاثنين حمر وكل واحد من الثلاثة فيها شيء ولكن لم أطلع عليه، فحمدت الله تعالى على ذلك وأرجو منه الزيادة لي بجاه هذا النبي الكريم، ومصداق هذا أيضا أن بعض المجاورين بالمسجد النبوي قال لي: قد سمعوا في هذه الليلة في جهة الحجرة صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول وكأنه يتحدث مع شخص آخر: اليوم سفر السودانيين ولم تكن يومئذ بالمدينة قافلة غير قافلتنا.

ثم إن العساكر السلطانية المذكورة لم تزل معنا إلى أن وصلنا المناحة التي بها القافلة، وقد نبهت الإعراب الحاملين لنا على إكرامنا وإكرام من معنا من الأصحاب والحجاج فامتثلوا أمرهم وما فعلوا معنا إلا خيرا، ثم رجعت العساكر وهم في غاية المحبة حتى وأن البعض قد أخذ الطريقة عنا، وذلك كخير الله عبدالله، وجعفر موسي الكاتب، فبتنا هناك.

اهل المدينة انتمو اسيادي

فلما أصبح الله بالصباح لحقنا أهل المدينة أفواجا أفواجا ومن بينهم ما لنا فيها من الخلفاء والتلامذة، وأيضا السيد أحمد السماني أطال الله عمره للوداع، ثم جاءنا ونحن هناك محتسب السوق وحاكمه يوسف شصلي بشين ثم صاد وبعدها لام، والمذكور من أخيار الأتراك، وبيته بقرب مسجد سيدنا عمر رضي الله عنه وكان قبل مجيئه هذا للوداع قد جاءنا زائرا في زاوية الإمام إبي عبدالكريم القطب السمان قدس

سره بما يحتاج إليه الفقراء في سفرهم هذا من دقيق القمح، فجزاه الله تعالى خيرا على ذلك ولم يزل دقيقه معنا إلى أن وصلنا محلنا طابت.

رحلة العودة من المدينة إلى سواكن:

ثم من بعد ذلك قد سافرنا وذلك كان يوم الأحد الواقع تاسع يوم من صفر وقد سلكنا الطريقة التي سلكناها أولا وهي طريقة الفرع وهي أحسن الطرق يومئذ وما زلنا مسافرين على أمن وراحة نفس إلى أن وصلنا رابغ، وقد حبب الله تعالي فينا ا

لعرب الذين معنا وهم كثيرون، كبتال وهو رئيسهم، وعلوش، وظبيب بالظاء المشالة، وعايش، وسمران، ونومان، وغيرهم، وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب حتى ولو تعدي عليهم من الحجاج أحد في شيء أو أذي أحدا منهم فلا يردون، وما ذلك إلا من لطف الله تعالي بنا، وبركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولولا ذلك لفعلوا بنا من الأذي والقتل ما فعل في غيرنا من قوافل الحجاج.

ثم من بعد وصولنا إلى رابغ واجتماعنا بالشيخ حسين ولد مبيريك قد دخلنا في السفن إلى جدة، وعند خروجنا منها تلقانا تلميذنا وخليفتنا الصادق الصالح الشيخ عبدالقادر دورة ابن الشيخ محمد صالح عبدالله وأنزلنا عنده وأكرمنا، ولم يزل معتنيا بنا إلى أن جاءت الوابور وفيها صار توجهنا وذلك ليلة الثلاثاء تسع عشرة ليلة خلت من صفر.

وسافرنا في لجج البحر نحو أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة، ومنها صار خروجنا ثم دخولنا الكرينتينة بأمر الحكام، وقد حصل لنا فيها إكرام كثير من حكامها، وهم كالسيد احمد افندي عثمان الأزهري معاون بالصحة البحرية، وأيضا عبدالدائم أفندي وفيروز أفندي، ولم يزالون معنا كذلك إلى أن تمت أيام الكرنتينة العشرة.

في الرحلة من سواكن إلى أم مرحي:

ثم من بعد خروجنا من الكرنتينة قد توجهنا من السفاين إلى موضع الجمارك وهو بالبر بخلاف محل الكرنتينة فإنه في جزيرة من جزائر البحر فلما فرغنا من ذلك الموضع المذكور وكان قد حصل من أهله لنا خاصة بعض أكرام وهو تركهم لبعض الأمتعة من الجمرك سافرنا إلى موضع الوابور وبه صار سفرنا إلى بلادنا.

فلما وصلنا كبوشية تلقنا الفاضل أحمد افندي ميرف والمذكور من التلامذة المباركين، فاخرجنا من الوابور بالحلف، وأقامنا في بيته بكبوشية في إكرام وإجلال وقد حضرنا عنده ليلة المولد الشريف أثنتي عشرة من ربيع الأول.

ولنرتب من هنا من صار نزولنا عندهم من الفضلاء إلى طابت المحمية، وأن هؤلاء الذين سنذكرهم بأسمائهم قد بالغوا جميعا في إكرامنا وإجلالنا، كل واحد منهم بما استطاع من ذلك، ومنهم من زاد على غيره بالهدية وبذل المال، نسأل الله تعالي لهم الجميع رضاءه ورضاء رسوله والحشر في زمرته الناجية يوم القيامة، وأن يكرمهم بالفوز العظيم وجنات النعيم وأن يديم عليهم إصلاح الحال وأن يبلغهم حسن الآمال.

فأول نزولنا كان عند الفاضل أحمد أفندي كما ذكرنا ثم من بعده عند الرجل الصالح تلميذنا الشيخ عبدالباقي بن الرضي بحلة الشيخ من المسيكتاب، وقد أخذ علينا الطريق في هذا الموضع جماعة لايحصون عددا وقد خلفنا هناك تلميذنا الصادق الفاضل العالم الشيخ نورالمدينة حسن) وهو ابن اخت الشيخ عبدالباقي المذكور وتلميذه في القرآن.

ثم دخلنا في الوابور من شندي وذلك عند صلاة الظهر وعند غروب الشمس او بعدها يسير نزلنا منها فصار مبيتنا عند الأخ الصالح الكامل والتقى الفاضل الشيخ عبدالقادر بن والدنا الشيخ عبدالرحمن ثم عند الشيخ الفاضل الشريف بن الشيخ محمد بن عبدالجبار الطيبي ثم بولد رملي عند الذاكر الشاكر اللمبارك الشيخ نورالدائم بن أخي الشيخ الصديق الطيبي.

زيارة القطب سيدي أحمد الطيب:

ثم من بعده سلكنا طريق الغرب لأجل زيارة الآباء والجدود نفعنا الله بهم، فكان نزولنا عند المبارك الكريم المعتقد الشيخ الريح بن الحاج أحمد السنهوري () ومنه توجهنا في جمع كبير من فقراء الطريقة إلى ضريح القطب الرباني، والغوث الرحماني، سيدي واستاذي وجدي الشيخ احمد الطيب بن الشيخ البشير السماني قدس سره، فلما وصلنا ساحته ذكر هناك الفقراء ذكرا كثيرا ونالوا مددا كبيرا ثم دخلنا القبة فزرنا الأستاذ الأعظم أولا، ثم الوالد رضي الله عنه، ثم بقية الأعمام وقد أنشدت

قد جئتكم من خير من وطيء الثرى	منو عـلينا بالإفاضـــــــة والقرا
انتم ملوك الصالحين وســــــادة	إرشادكم مشــــهور من بين الوري
وابوكم الاستاذ قطـــــــب دوائر	الصلحاء طرا في الأراضي بلا امترا

في الرحلة من أم مرحي إلى طابت المحمية:

ثم من بعد زيارة هؤلاء السادة الكرام والأولياء العظام زرنا الفاضل والشيخ الكامل الشريف ابن الاستاذ الوالد رضي الله عنه، وقد وجدناه حينئذ مريضا، ثم بقية الأعمام والأجداد، وقد دعونا لمن هناك من الإخوة والخلان والجيران رحمة الله عليهم أجمعين.

ونزولنا في هذا المحل كان عند الورع التقي الشيخ زين العابدين بن الشيخ أبي الصالح الطيبي لأنه أول من بادرنا هناك وإنشرح صدره لقدومنا، ثم من بعده عند الفاضل الفقيه أحمد بن محمد بن الولي الكامل الحاج أحمد الشهير بالبقاري تلميذ القطب العارف سيدي الشيخ محمد السمان رضي الله عنه، ثم عند خليفتنا الفاضل الشيخ الصديق ابن خليفتنا الشيخ محمد عوض السيد السرورابي رحمه الله تعالي بجزيرة أم طريفي، ثم عند ولدنا المبارك محمد بن مقبول ولد أحمد ابن الولي السروراي ثم عند الحبيب بن الحبيب الفاضل الفقيه محمد بن الفقيه عبدالمحمود ولد الطيب ولم يكن نزولنا عند من ذكرناهم ومن سنذكرهم إلا عن طلب منهم ومحبة.

ثم من بعده صار نزولنا عند الكامل الصالح العفيف الكريم مربي المريدين وملجأ القاصدين حبيبنا وصديقنا الشيخ عبدالله بن الفقيه الامين ولد أم حقين نفع الله به عباده، والمذكور قد أهدي لنا هدية واسعة هو ومن معه من بينهم أخيه الولي الكامل الفقيه المصطفي رحمه الله، والفقيه محمد المبارك، والشيخ الصادق، وابن العمم الفاضل الفقيه احمد بن الفقيه ناصر الجموعي، ثم من بعده قد قصدنا زيارة أبيه والشيخ عبدالمحمود أبي شيبة العركي وتوجهنا إلى أن كان نزولنا عند الشيخ العباس الدعيته) خليفة الشيخ عبدالله المذكور.

ثم دخلنا البقعة وصار نزولنا فيها عند تلميذنا الفاضل العاقب ولد نعيم، والفاضل الحاج حسن ولد حضرة، والحاجة السارة بنت عبدالدائم، كل واحد من هؤلاء في منزله جماعة من التلامذة وأنه قائم بما فيه كفايتهم من أوجه الإكرام، وقد أرسل لنا

ونحن هنا بعض من الفضلاء والأدباء قصائد مشتملة على تهنئة وثناء منها قصيدة الأخ الصالح الحاج مدثر بن إبراهيم الحجاز وهي طويلة ونذكر بعضا منها على سبيل الاختصار وزيادة ففي المحبة في قلوب الأحرار والأخيار:

يا يها المحمود جاء حديثكم عندي فطاب ولم يكن أمرا سدي

ثم من بعد ذلك جاءنا ذو المآثر الجليلة والفضائل الجميلة الزبير رحمة باشا، فطلب قدومنا إلى محله، فذهبنا إليه ومن معنا من التلامذة، وقد أكرمنا غاية الإكرام، وقد جاءنا ونحن عنده شيخ الإسلام وبهجة الأنام الشيخ محمد البدوي حمى الله به الدين، ونفع به سائر المؤمنين زائرا فأخذ معنا جلسة مباركة كلها في الله تعالى، وقد سمع بعض دواوينا فلذ له ذلك وأثني بما لا مزيد عليه من الثناء.

ثم من بعد ذلك قد خرجنا من مدينة امدرمان وفيها قد أخذ علينا الطريق جماعة وخلفنا فيها خلفاء ومن بعد خروجنا المذكور صار نزولنا عند تلامذتنا الكرام الحاج محمد بن الحاج صغيرون العودي وأولاده الشيخ عبدالمجيد والشيخ عثمان، ثم إلى الفاضل الشيخ يوسف بن أحمد بن الشيخ مطيع، ثم إلى الشيخ محمد بن أحمد ولدا الداقريس المقدابي، والمذكور هو وبنو عمه قد أهدوا لنا هدية واسعة، ثم توجهنا إلى خليفتنا الصالح العالم العلامة الشيخ حامد بن عطا الله فأكرمنا وأهدي لنا، ثم إلى منزلنا بجار النبي فأقمنا فيه شهرا، ثم إلى الخشوماب الذي فيه أحبانا بولد حسن، ثم إلى الفاضل النور وله عبدالقادر والمذكور وهو أحد التلامذة المباركين، ثم إلى ولدنا في الطريق عبدالقادر ولد محمد ولد مضوي بهزار النائم، ثم إلى الفاضل التقي العالم المبارك خليفتنا الشيخ عبدالدافع ولد مضوي بن الفقيه محمد الأغبش، ثم إلي تلميذنا محمد ولد على ولد سليمان ثم إلى فضل السيد محمد بروق وهؤلاء الثلاثة قريتهم التي هم فيها واحدة وتسمي الخيران، ثم إلى تلميذنا الوفي الصفي الكريم الشيخ عبدالماجد بن الطيب ومنه صار نزولنا عند الحبيب المبارك الشيخ تاي الله ولد الفقيه عبدالله النفيدي ومنه إلى طابت المحمية، وعند قربنا منها قد تلقانا سكانها وأولادنا في جمع كبير على حالة محبة وإجلال كبير من التلاميذ وغيرهم، وقد دعونا للجميع بالدعوات الصالحات المباركات والتي نرجو من الله عز وجل قبولهما ودوام نفعهم وغيرهم من إخوانهم في الحياة وبعد الممات، ثم من بعد ذلك قد كان نزولنا بموقعنا على حالة

سرورية وخيرات متواترة سرية وجهرية وقد اجتهد جميع سكان طابت من أولادنا وغيرهم من الأحباب والتلامذة في إكرامنا وما تأخر عن ذلك أحد إلا لعذر، ونسأل الله تعالى أن يكرمهم في الدنيا والآخرة بما فيه رضاه أنه على ما يشاء قدير وهو المجيب لمن دعاه.(انتهى النص).

نتائج الدراسة:

يتضح من عرض الشيخ عبدالمحمود في القسم الأول والذي يشير فيه إلى خروجه من قريته وإكرام القرى المجاورة له والذين رافقوه من قرية إلى قرية إلى ما عرف حينها بزفة الحج وهي تظاهرة كبرى تبلغ الآلاف عند ذوي المكانة، حيث يخرج الناس مودعين الحاج في موكب كبير رجالا ونساء وأطفالا، يعبرون عن أشواقهم لهذه الشعيرة بكاء ومدحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقلون من قرية إلى قرية وينزل الحجاج بها فيكرمون ويهدي لهم شيء من المال والزاد وعرض التجارة كالسمن والعسل ما يبيعونه في الحجاز ويتهادون ببعضه ويتبادلون المنافع، وهذه مظاهر اختفت في زمان الناس هذا، وبالطبع في زماننا هذا زهد في إشهار الحج وفيه فائدة إلا أن الفائدة في إشهاره أعظم فإن تعظيم شعائره الله من تقوي القلوب، كما تعمل على تعلق أفئدة المسلمين بالشعيرة، ويتعلم منها الصبية عظم الشعيرة وركنيتها في الإسلام، كما يتضح ايضا إكرام أولي الأمر والسياسيين لهذه الشعيرة وذلك عندما قابل الشيخ عبدالمحمود الزبير باشا والحاكم العام رغم أن الاخير على غير دين الإسلام.

في القسم الثاني يصف الشيخ عبدالمحمود الطريق ويسمى قراه ومحطاته من الخرطوم إلى عطبرة ومن عطبرة إلى سواكن ويلتقي في سواكن علية القوم وهنا يرد ذكر آمونة بت عبود وكيف إنها تأثرت بدعوة الشيخ الاستاذ احمد الطيب البشير ومن خلال سيرة الشيخة امونة بت عبود يتضح لنا انها قامت بزراعة القطن بوادي بشارة بالقرب من شندي ونسجت إحرامات الحج وأقامت الخلاوي ولما كبرت مقدراتها وعلمت ان جميع حجاج السودان وغرب إفريقيا يتجمعون في سواكن ذهبت إلى شرق السودان وزرعت القطن واقامت محالجه ونسجت الإحرامات وهي تجارة رائجة. وبنت الخلاوي فاستفاد ابناء السودان من علم حجاج- غرب إفريقيا وأمونة المذكورة من

سوراب الشايقية وزوجها محمد أزيرق قاما بنشاط زراعي وصناعي وتجاري وتعليمي يجسد فوائد رحلة الحج.

في القسم الثالث يصف الشيخ عبدالمحمود الرحلة من سواكن إلى بورتسودان إلى جدة حيث قدم وصفا دقيقا للأبنية والعمران في جدة والطرق الصوفية والتكايا التي نزل بها خاصة تكية السيد أإحمد بن إدريس الفاسي، وذكر أن مدينة جدة ومنذ ذلك التاريخ بها أبنية عالية ذات طوابق متعددة وفيها سوق رائجة وأجناس من البشر متعددة كما وصف حاراتها وذلك بالإضافة إلى ماسبقت الإشارة إليه من وصف سواكن وبواباتها وأبنيتها وقد ضم هذا القسم الإحرام بالحج إلى مكة ووصف الطريق إليها وقد عج هذا الجزء بالفقه ووصف المشاعر وخطوات الحج، فالواقف عليه لا يحتاج لفقه الحج ولا لكيف يؤديه، فالمطلع عليه كأنه حضر دورة تدريبية في مناشط الحج، فقد كان الوصف ممتزجا بالترجيحات الفقهية في أركان الحج ومندوباته، الطواف والسعي والمبيت بمني والوقوف بعرفة والذهاب إلى مزدلفة والجمرات وطواف الوداع وغيرها.

وفي القسم الرابع يصف الشيخ عبدالمحمود الطريق إلى المدينة. وقد كان وقتئذ بحرا وفي هذه الرحلة تجلت حكمة الحج في التواصل والاتصال حيث قام الشيخ بإصلاح ذات البين وفض النزاعات بين الحجاج الأفارقة، كما أنه حاور الحجاج اليمنيين في مذهبهم الزيدي الشيعي وأظهر براعة في الاستدراج والقدرة على إدارة الحوار وهي فائدة من فوائد الطرق القديمة التي تتيح التواصل والتدامج بين المسلمين والتعرف على مذاهب المسلمين المختلفة. وفي هذا القسم تدفقت شاعرية الحاج عبدالمحمود الحفيان بالشوق والوجد فأظهر قدرة على غرض الشعر ولا سما به لفظا ومعنى وحسن مبنى. وفي القسم الخامس والذي تضمن رحلة الأوبة من المدينة إلى سواكن يستخلص القاريء من خلال رواية الشيخ تقدير العرب، السعوديين للسودانيين من ذلك العهد، وتقدير السعوديين للسودان من دون الشعوب الأخرى بالإضافة لأدب السعوديين الجم يقول وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب، ولو تعدي عليهم من الحجاج في شيء أو أذى أحدا منهم فلا يردون "

ولم تكن للشيخ عبدالمحمود ذكريات في رحلة الأدب إلا في سواكن حيث عفاه أهل الجمارك من جمركة بعض بضائعه، ثم عندما نزل في شندي أكرم الناس وفادته وأهدوه المال والمتاع إلى أن وصل ديار نشأته في ود رملي حيث عمه الصديق وأبناؤه ومنها إلى أم مرحي كما قابل في الخرطوم الزبير باشا مرة ثانية وقابلته قبل دخول طابت زفة التهنئة بالقدوم من جميع أهل القرى والتلاميذ.

وإجمالا وفي ختام هذه السياحة فإننا نستشف من هذه الرحلة أن الحج مناسبة دينية عظيمة عند السودانيين وعند الإفريقيين عامة وأن الحجاج بما فيهم الشيخ عبدالمحمود كانوا أعلم الناس وأقدرهم على الإنفاق لذلك استفاد الناس منهم في طريق حجهم الدين علما وروح تدين، وتبادل عروض التجارة فعرفوا منتجات أرض الإسلام وتعرفوا فيها على عقائد الناس وطبائعهم. ولقد كانت لطرق الحج هذه دور في التواصل بين أجزاء السودان والقارة قاطبة وساهمت في الإندماج الثقافي بين المسلمين وعرفت المسلمين على عادات وطبائع البعض وساهمت في تعلم اللغات واللهجات المختلفة وخلقت نوعاً من التواصل الوجداني بين المسلمين.

ومن ناحية أخرى فقد ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في تسهيل الحج لكنها حرمت المسلمين من التواصل بين الأقاليم المختلفة، فالآن أصبحت فوائد شعيرة الحج لازمة لشخص الحاج في الوقت التي كانت فيه هذه الفوائد متعددة للمجتمعات المسلمة في كافة إفريقيا خاصة بعد تدخل الدولة الحديثة والاقتصاد الحديث في تنظيم الحجاج وتأطيرهم حجاج كل بلد وكل ولاية وكل قرية على انفراد.

الهوامش والمراجع

- إبراهيم الكبري: أدب الرحلة عند الشيخ ابراهيم الياس الكولخي رسالة ماجستير جامعة بايرو 2007م.
- أحمد الصافي: حاشية الصافي على شرح الجلالين. نسخة يدوية في مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- جلال الدين السيوطي: تنوير الحوالك بشرح الإمام مالك. نسخة خطية، مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- حسن محمد حسن: التالكي وشخصيته الأدبية، بحث ماجستير غير منشور.
- الشيخ عبدالمحمود الحفيان: الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، نشر مشيخة الطريقة السمانية سلسلة المطبوعات (17) دار جامعة القرآن الكريم للنشر 1996م.
- صالح أحمد ابوالفتح: كتاب الرحلة الحجازية للشيخ إبراهيم الياس الكولخي ورقة بحثية أعدت لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا 2016م،.
- عبدالرحمن أحمد عثمان: الطرق الصوفية بالسودان، الذكر والذاكرين 2007م.
- عبدالله حمد الحقيل: أدب الرحلات فن متميز: نقلا عن آدم عبدالله أدب الرحلات في مناسك الحج ورقة لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا العالمية (2016م)
- عبدالله موسي دستو: لب اللب في شرح منظومة روح الأدب: شركة أبناء الشريف الأنصاري 2010م.
- عبدالمحمود نورالدائم: أزاهير الرياض.
- عبدالمحمود نورالدائم: العرف العطير في مدح جناب البشير النذير.
- عبدالمحمود نورالدائم، نفيس القصب في شرح جالبة الكرب.
- غازيتة جمهورية السودان الدار القومية للوثائق 1906م / 1907م.
- مجذوب مدثر الحجاز، مسور الرقيم في سيرة مدثر إبراهيم.
- محمد المسعودي: بناء الرحلة الحجازية في كتاب الحج إلى بيت الله الحرام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود (2016).
- محمد غبريم الداغري: النوافح العطرية المختصرة في النفحة العنبرية.
- محمد كامل حقة. الرحلة الحجازية ومدح خير البرية،في طرق الحج الإفريقية، 1976م
- محمد نور ودضيف الله: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين.